توفيق الحكيم يحدث «الآداب» عن :

• خصائص المسرح الذهني • استجابة الجمهور للمسرح
• الحوار بين الفصحى والعامية • الفلسفة التعادلية
• مسرحيات الأدباء الشباب • الأدب وعميد !..

اتيح لي ، اثناء زيارتي لمصر ان اتتبع بعض مظاهر النشاط الفكري في القاهرة . وقد شاهدت ، فيما شاهدت ، مسرحيتين كانتا اولاهما تمثل على مسرح الأزبكية ، والثانية في دار الأوبرا . اما المسرحية الأولى فكان عنوانها « الناس اللي تحت » وموضوعها ، كما يدل على ذلك العنوان ، شعبي محض يتناول الصراع بين جيلين ، وعقليتين ويتجه الى تمجيد العقلية الجديدة المتحررة الثائرة .وقد كانت لغة المسرحية العامية المصرية البحتة . والحقيقة انني كنت ، في الفصل الأول منها بنوع خاص ، كالغريبة لا اكاد افهم شيئاً مما يقال . وكنت اسمع الجمهور يصيح للنكت التي تلقى فاجفل ويضطر من كنت ارافقهم الى ان يترجموا لي اللغة العربية.اما المسرحية الثانية ، فكانت « ايزيس » لتوفيق الحكيم . وقد كانت تنطق بلغة عربية سليمة . والحقيقة انني –كعربية – ارتحت لهذه اللغة ، فشعرت انني غير غريبة فضلا عن انها يسرت لي ان افهم ما يقال وان اتذوق ما يخرجه اخواننا الفنانون. وكانلي على هذه المسرحية نقاط استفهام كثيرة ينحصر اهمها في أن المسرحية – بالرغم من اخراجها الذي بلغ حداً يعجب فعلا – هي من تلك المسرحيات التي يفضل المرء ان يقرأها على ان يشاهدها . اما الدرام فيها فهو صراع بين فكرتين : فكرة الشر المتمثلة في الملك المغتصب وفكرة الصلاح والخير المتمثلة في اوزريس الملك العالم المحب لشعبه. وليس هنا مجال الافاضة في الحديث عن هذه المسرحية . فالحق ان « ايزيس » هي التي اثارت في ذهني كثيراً من الأسئلة والملاحظات والتأملات حول المسرح العربي المعاصر ، فعزمت على ان اتوجه الى ممثل من اكبر ممثلي هذا الفن ، بل هو ، يقيناً ، اكبرهم على الاطلاق . وكان القصد ان اطرح عليه علامات الاستفهام هذه المتعلقة بمسرحه والتي لابد ان تلقي نوراً على المسرح العربي بالاجمال .

وعزمت على ان التقي بالأديب الكبير ولكنني ترددت عندما تذكرت «دور المرأة » في مؤلفاته ، واي كره قد لحقها منه ، واية نقمة ستقع عليها بالتالي ان هي اتته اليوم مستجوبة . على ان ذلك لم يمنعني من ان القاه ، على موعد ، في المجلس الأعلى للفنون حيث يحتل هناك وظيفة مرموقة . كان يلاحق الشمس لتبعث في جسمه الدفء فلما رآني اسرع الى ملاقاتي بوجه ضحوك رأيت فيه غير الوجه التقليدي الذي كونته في نفسي . ولما عرضت عليه انني اريد ان اجعله على موعد مع قراء « الآداب » امتعض قليلا : فكم لحقه من اذى من اولئك الذين يتوافدون عليه منذ ان سطع نجمه الأدبي يستكشفون – في اغلبهم – خفايا حياته الخاصة التي لا تلقي اي ضوء على شخصه كمؤلف . وصمت قليلا ولمحت في عينيه بريقاً فهمت منه انه يتساءل ما عسى ان تسألني هذه المرأة ؟ ثم قال :

ارجو أن لا تسأليني متى تفطر ولا متى تنام ولا ما تأكل . لقد سئمت هذه الأسئلة ولن اجيب عليها لكثرة ما القيت علي . ولكنني فاجأته بهذا السؤال :

ما هي خصائص المسرح الذهني في رأيكم ؟

فانشرحت اساريره . فليس احب للفنان من ان تكلمه عن فنه . وقبل أن يجيب قال : ان اسئلة كهذه تتيح للفنان ان يغوص بعض الشيء في ما انتجه . في اكثر الأحيان يكتب الأديب بوحي من ساعته فاذا ما انتهى عجب هو نفسه مما كتب . ولهذا كان دور الناقد هاماً في تنبيه الأديب ؛ فانه قد يتيح له ان يكشف مثلا عن مكامن الجمال المتغلغلة في فنه والتي كان هو نفسه يجهلها . فاذا استجوب الأديب عن فنه اضطر هو ان يكون ناقد نفسه ، وان يرجع الى العوامل الأصيلة التي شاركت في انتاجه وان يشارك مؤرخي الأدب او قرائه على توضيح بعض ماقد غمض عليهم . قال الأستاذ الحكيم رداً على سؤالي :

«المسرح الذهني في رأيي هو ذلك الذي يقول للناس : « لقد اعتدتم ان تروا في المسرح العاطفي صراعاً بين عاطفة وعاطفة . كما اعتدتم ان تروا في بقية الوان المسرح صراعاً أو عرضاً لشخصيات وحوادث . اما في المسرح الذهني فالصراع بين فكرة وفكرة ، والأبطال الحقيقيون فيه هي الأفكار الكبرى . إن العاطفة ليست في حياة الانسان اكبر شأناً من الفكرة . واذا كانت العاطفة قد سارت بالانسانية خطوات ، فان الفكرة قد سارت بها ايضاً خطوات . فليس من الحق اذن ان يقتصر المسرح على عرض العواطف دون عرض الأفكار . واذا كانت الانسانية في طفولتها قد اعتادت أن تصفق للصراع في الحلبات العامة بين الحيوان والحيوان ، ثم بين الانسان والحيوان ، ثم بين الانسان والانسان الى ان ارتقت فصارت تصفق لمشهد الصراع الأدبي والفني بين الانسان والعاطفة . فمن الطبيعي اذن ان نطالب بمشاهدة الصراع الأدبي والفني بين الانسان والفكرة .

قضايا الفكر العربي المعاصر

ولكنني اعترضت قائلة ولماذا تحرصون على ان يكون مسرحكم مسرحاً ذهنياً في وقت يحتاج فيه ادبنا الى مسرح يستجيب له الجمهور ؟ ان المسرح عندنا ما يزال في عهد الطفولة ولن يتلاءم ذلك مع المفهوم الذهني . فهو في بدايته بحاجة الى استجابة الجمهور لأنه خلق له قبل ان يخلق الطبقة قليلة تقرأه فتتذوقه . الا ترى من الأفضل ان نأخذ بيده ونرتفع ولا مانع به بعد ذلك من أن نجعله يقفز خطوات ونختصر له الطريق ؟

فأجاب : « في الواقع ربما كان جمهورنا — في اغلبه على الأقل — لم يزل في المرحلة التي يحتاج فيها الى المسرح العاطفي او نحوه مما يستجيب له . ولكن من واجبي ايضاً ان امهد الطريق لهذا الجمهور نحو مسرح اعتقد انه سوف يحتاج الى وجوده يوماً . كما ان ادبنا العربي الحديث لن يكون شاملا لكل الألوان اذا اهملنا هذا اللون المسرحي الذي يقوم على الفكر ، واقتصرنا على اللون الذي يقوم على العواطف . يجب ان نفتح في ادبنا الحديث كل الأبواب وكل النوافذ ، ليكون ادباً تاماً كاملا .

ومع ذلك فان أعمالي المسرحية لم تقتصر على اللون الذهني . فأنا قد كتبت نحو خمسين مسرحية . منها عشر مسرحيات فقط هي التي يتكون منها ما يسمى عادة بمسرحي الذهني . في حين اني كتبت نحو عشرين مسرحية اجتماعية نشرت في المجلد المعروف باسم « مسرح المجتمع » . كما ان عشرين مسرحية أخرى مختلفة الألوان كتبت ما بين ١٩٢٣ و ١٩٥٥ أي على مدى ثلاثين عاماً ستنشر قريباً في مجلد واحد يقع في اكثر من ٨٥٠ صفحة من القطع الكبير باسم « المسرح المنوع » .

ان قراء اليوم يستطيعون ان يحكموا على بعض انتاجكم فهو ، عدا صفة الذهنية التي تطبعه بطابع خاص ، يتسم ايضاً بانه غالباً ما يقوم على الصراع بين القلب والعاطفة ، هذا الصراع التقليدي الذي عرفته المسرحية منذ زمن بعيد . ولكن الا تعتقدون أنكم بذلك تضيقون حدود المضمون الفكري في المسرح حين تقصرونه في معظم مسرحياتكم على هذا الصراع ؟

وبدا انه لا يشارك في هذا الرأي فاجاب :

« بالعكس . ليس اوسع حدوداً من ذلك الصراع بين القلب والعقل . لأن الانسانية كلها في مختلف عصورها لا يقوم فيها الصراع إلا بين القلب والعقل . كل العقائد الدينية ، وكل الأوضاع السياسية ، وكل الاتجاهات الاقتصادية ، وكل الثورات الاجتماعية أساسها الحقيقي صراع بين القلب والعقل ، أي بين الأيمان والتحرر الفكري ، أو بين المثالية والمادية ، أو بين العاطفية والواقعية . أي بمعنى آخر بين النزعات النابعة من القلب والنظرات المستندة الى العقل . ولا أريد أن اتكلم عن حياتنا البشرية اليومية ومقدار ما تتعرض له من الصراع الدائم بين القلب والعقل فهذا شيء معروف وملاحظ في كل لحظة تمر بنا . فالصراع بين القلب والعقل هو الصراع الجوهري الخالد في صميم الانسانية . ومن هذا الصراع يتولد الاحتكاك الدائم الذي تشع منه الأضواء التي القت النور في طريق البشر »

تبقى مشكلة اساسية يشكو منها المسرح اليوم ، هي مشكلة الحوار . فالبعض يرى ان الفصحى عاجزة عن التعبير عن الحياة تعبيراً واقعياً يتلاءم مع اشخاص نشاهدهم على خشبة المسرح يعيشون امامنا ، اشخاص قد انتزعهم المؤلف من صميم الحياة وعرضهم علينا . فاقل ما يجب ان يتمتعوا به ، هو ان ينطقوا كلاماً يتوافق مع هذه الواقعية . على ان العامية ايضاً عاجزة عن تحقيق الفن في المسرحية لأن الفن ليس هو نقل الحياة كما هي . ولقد سمعت انكم حاولتم حل هذه المشكلة في مسرحيتكم الجديدة « الصفقة » التي لم يتح لي ان اطلع عليها بعد فكيف كانت النتيجة ؟ فأجاب :

« اني اقول دائماً ان النتائج لا تعنيني لأنها ليست ملكي . ولكن الذي ملكي هو العمل والمحاولة والتجربة . وقد حاولت كثيراً معالجة قضية الفصحى والعامية في اكثر من مسرحية ، تارة باستعمال الفصحى المبسطة أو العامية المرتفعة . وأخيراً هذه اللغة التي استعملتها في مسرحيتي الأخيرة « الصفقة » وهي لغة تجمع بين الطريقتين . ولا أدري مقدار نجاحها . فهذا أمر متروك لتقدير القارئ وللبحث العام . »

وكان لابد لي من سؤال كثيراً ما طرحته على نفسي وهو العلاقة التي تكمن بين مسرحيات توفيق الحكيم وبين فلسفته التي يدين بها وهي « التعادلية » . وقد سبق ان اوضح مبادئها في كتابه المعروف « التعادلية » فاردت ان اوفر على نفسي مؤونة البحث فسألته ان كانت تدخل في مسرحياته وهل سبقت انتاجه المسرحي فجاءت عفواً ام بعده فكانت تطبيقاً لبعض مبادئها . ؟

وقال الأستاذ الحكيم :

« عندما كتبت مسرحياتي لم اكن افكر بمذهب من المذاهب ولا بفلسفة من الفلسفات . بل كنت اكتب بوحي طليق من كل قيد . اما « التعادلية » فقد طرأت بعد ذلك . واذا لاحظ

قاريء او باحث ان بعض مسرحياتي او كلها تعبر عما في « التعادلية » من مبادئ، فقد يكون هذا امراً طبيعياً . ولكنه لم يكن بالشيء المقصود او المتعمد منذ باديء الأمر. وبعبارة اخرى : لا أحب ان أخضع فني لما يسمى بفلسفتي ، ولكن للفلسفة ان تلقي الضوء على الفن . »

سؤال اخير احببت ان اطرحه على رائد من رواد المسرح العربي، وهو رأيه في مسرحيات الأدباء الشباب في مصر. فليس اطرف من ان تلقي مثل هذا السؤال وانت تعرف مسبقاً اية « مودة » تقوم بين الفريقين. ولكن الحكيم كان حكيماً فاعترف بجهودهم قائلا :

« ما من شك في ان لأدباء الشباب جهوداً موفقة مشكورة في الأنتاج المسرحي الآن . وان كانت العقبات الكثيرة المثبطة لم تزل واقفة تعترض طريقهم ، واهمها عدم ازدهار المسرح ذاته في بلادنا بالسرعة التي كنا نرجوها له . وذلك راجع الى منافسة السينما ، والى قلة عدد دور التمثيل ، مما ترتب عليه قلة عدد الفرق التمثيلية المشتغلة . ومن هنا قلّت الحاجة الى كتّاب المسرحية . ولكن ذلك لم يمنع من اهتمام ادبائنا الشباب بالمسرحية باعتبارها لوناً من الوان الأدب ، كما ان انتاجهم فيها يتزايد عاماً بعد عام على الرغم من كل الصعوبات »

ولكن ما نلاحظه هو ان توفيق الحكيم قد اعترف بهذه الجهود المشكورة التي يقوم بها الأدباء الشباب بالرغم من تلك الصعوبات التي حددها، غير أنه تغاضى عن جوهر السؤال والادلاء برأيه في قيمة هذا الانتاج من الناحية الفنية البحتة . ولست ادري ان كان التجاهل احكم .

وقبل أن اودع الأديب المسرحي الكبير الذي رسمته بعض الصحف المصرية عميداً للأدب لعام ١٩٥٦ سألته عن رأيه في ذلك فبدا على وجهه الأشمئزاز وقال :

« قولوا لي أولا هل يوجد عميد للأدب في امريكا أو في روسيا أو في انجلترا أو فرنسا أو المانيا الخ الخ ؟؟ هل يعرفون هناك في تلك البلاد مثل هذه الألقاب في محيط الأدب ؟ لماذا نحن اذن في الشرق العربي نفكر دائماً في العمادة والزعامة والرياسة ، حتى في هذه البيئة الحرة التي هي بيئة الأدب والفكر . اني افهم ان يكون هناك اتجاهات ومدارس ومذاهب لها من يمثلها . ولكن تنصيب شخص واحد لزعامة الأدب بأكمله، هذا شيء غير مقبول اليوم في الآداب العظيمة المتحضرة. وقد آن الأوان ان نتخلص في بلادنا من هذه المخلفات العتيقة . وتذكرون ان هذا ايضاً هو رأي الدكتور طه حسين الذي سبق أن ابدى اعتراضه على هذه الألقاب في اكثر من مناسبة. »

ووغادرت مكتب توفيق الحكيم شاكرة ما حملني من آراء وتوضيحات نحن بحاجة اليها، كما حملت معي طائفة من كتبه ارجو ان يكون لبعضها، ولاسيما « الصفقة » مجال للبحث والمناقشة على صفحات « الآداب ».

عائدة مطرجي ادريس

يصدر قريباً :

الطبعة الثانية من :

حياتنا الجنسية

للطبيب الالماني الدكتور فريدريك كهن

اجرأ واصرح كتاب جنسي علمي ضخم
نفدت طبعته الأولى في اقل من شهر واحد

٥٠٠ صفحة **٣ ليرات**

البؤساء

لشاعر فرنسا الكبير فيكتور هيجو

الطبعة الثانية

القصة كاملة في مجلد واحد

٥٠٠ صفحة **٥ ليرات**

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر